

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أنس - رضي الله عنه - " مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عَنْ قَبْرٍ "

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فعن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على امرأة تبكي عند قبر، فقال: ((انقي الله واصيري))^(١).

مر - عليه الصلاة والسلام - على امرأة تبكي عند قبر، وجاء في بعض روایات الحديث: ((تبكي على صبي لها))^(٢).

وهذه المرأة مر بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي في حال مصيبة، قد فقدت صبيها وصغيرها، ومعلوم منزلة الولد من قلب الوالد.

قال لها: ((انقي الله واصيري)), فأمرها بالتنفس أولاً؛ لأن من تحقق بالتنفس فإنه يكون ممثلاً مذعناً لمطلوبات الشارع، ومن فقد التقوى فإنه لا يستطيع أن يزعم نفسه بزمام الطاعة، فتختلف عليه نفسه، وينفرط صبره، فيصدر منه من ألوان الجزع، والتوعي، والأقوال والأفعال غير اللائقة ما لا يخفى.

أمرها بالصبر، وهذا هو الشاهد الذي من أجله أورد الإمام النووي - رحمه الله - هذا الحديث في باب الصبر.

وهذا الصبر هو حبس النفس في حال المصيبة عن الجزع والتسخط والنياحة، وأشباه ذلك مما لا يجوز للإنسان أن يفعله في مثل هذه الأمور المكرورة المؤلمة التي لا يخلو منها إنسان.

وليس أمام الإنسان طريق أمام المصائب سوى الصبر، وإنما يهمنا فعل لن يسترد به فائتاً، ولا يمكن أن يستدرك به أمراً يطلبه وينوح على فقده، فإنما يصبر صبر المؤمنين، وإنما أن يسلو كما تسلو البهائم، يخف أثر المصيبة عنه يوماً بعد يوم، ثم بعد ذلك تتلاشى، فهذا أمر لا يليق بالمؤمن.

قالت: ((إليك عنِي، فإنك لم تصب بمصيبي، ولم تعرفه)), يعني ابتعد عنِي، ولم تعرفه - عليه الصلاة والسلام -، وفي بعض الروایات قالت: ((إليك عنِي، فإنك خلُوًّا من مصيبي))^(٣) ومعنى خلو من مصيبيها: أنه فارغ بالال، فهي لم تعرفه - عليه الصلاة والسلام -، فتقول: أنت تأمرني بالصبر، ولم تذق ما ذقت، قال: ((فقل لها: إنه النبي - صلى الله عليه وسلم -)، وجاء عند مسلم: ((فأخذها مثل الموت)) لما علمت أنه النبي

^١ - أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٤٣٠/١)، رقم: (١٢٢٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٣٧/٢)، رقم: (٩٢٦)، واللفظ للبخاري.

^٢ - أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٣٧/٢)، رقم: (٩٢٦).

^٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما ذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن له بواب (٢٦١٥/٦)، رقم: (٦٧٣٥).

-صلى الله عليه وسلم- فصار ذلك أعظم من فقدها لولدها ومصابها، أخذها مثل الموت؛ إجلالاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تخطبه بمثل هذا الخطاب.

قال: ((فأنت باب النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم تجد عنده بوابين)) لكمال تواضعه -عليه الصلاة والسلام-، على غير عادة الملوك فإنه لا يمكن الدخول من الدخول لوجود الحرس، والبوابين على أبوابهم، فوجدت باب النبي -صلى الله عليه وسلم- كغيره من الأبواب ليس عليه حارس، ولا بواب، وكأنها كانت تظن أن بابه -عليه الصلاة والسلام- لابد أن يكون محروساً، فلما جاءت قالت له: ((لم أعرفك))، تعذر إليه -عليه الصلاة والسلام- من مقالها، فقال لها -عليه الصلاة والسلام-: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى))، ومراد النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك -والله أعلم- أنه -عليه الصلاة والسلام- أعرض عن اعتذارها إليه، لأنه -صلى الله عليه وسلم- لا يطلب بحقه ولا يقف عند نفسه، وإنما نبهها على أمر من مطلوبات الشارع، وهو أن يكون الصبر حال وقوع المصيبة، لا إذا عاد للإنسان عقله، وفكه ورويته بعد ذلك، فإن المصيبة لها صدمة في أولها، وهذا شيء مشاهد.

وكتير من الناس يتصرفون بتصرفات لا يدرؤن كيف تصرفوها، ويتكلمون بكلام لا يعرف الواحد كيف تكلم به، بل لربما قيل لأحدهم: إنك قمت تصلي، وهو لا يدري بما وقع منه، وقد شاهدنا شيئاً من ذلك، وبعضهم لربما تكلم بكلام ولطم نفسه، وصاح وما إلى ذلك، فإذا قيل له ذلك لم يتذكر شيئاً منه، ولربما إذا ذكر به استحيا وخجل، وتنوى أن ذلك لم يقع منه، أو أن ذلك لم يكن بحضره فلان أو فلان، مما يبين ضعفه وعجزه وهله وخوار نفسه، ومنهم من قد يتصرف بتصرفات أخرى في حال الصدمة الأولى، بعضهم لربما لا يشعر بشيء من مصبيته، وإنما يشعر بها بعد مدة، على عكس المتوقع، يعني بعضهم يقول بأنه مسترسل في حاله وفي ضحكه، بل لربما بعضهم ضحك حينما يسمع الخبر، ثم بعد ذلك يأتيه ما لا قبل له به من الحزن، ولربما تأخر ذلك عنه على غير العادة.

قوله: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى))، يعني: بمجرد وقوع المصيبة، هذا أوان الصبر إن كنت حازماً وأما إذا هدأت النفس فإن الصبر هنا لا يحمد؛ لأنه قد ذهب موطنه، ولذلك رخص الشارع في الحداد للمرأة أن تحد على غير الزوج ثلاثة أيام، لا تزيد على ذلك، والسبب في هذا أن المصيبة تبقى محتملة في النفس حرارة طرية هذه المدة عادة، وهذه طبيعة ركبها الله -عز وجل- في النفوس، ومن لطف الله -عز وجل- أن الإنسان يسلو وينسى، وإلا لدامت حسراته وأحزانه، ولم يهنا بنوم، ولا طعام، ولا شراب، ولا خلطة، وبالتالي أخذ من هذا الفقهاء -رحمهم الله- أن العزاء ثلاثة أيام، وهذا ليس عليه دليل خاص، لا في الكتاب، ولا في السنة، وإنما استنبطوا ذلك استنبطاً من بعض الأدلة، مثل: أن المرأة تحد على غير الزوج ثلاثة أيام^(٤).

^٤- قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً)) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب حد المرأة على غير زوجها (٤٣٠/١)، رقم: (١٢٢١)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمها في غير ذلك إلا ثلاثة أيام (١١٢٣/٢)، رقم: (١٤٨٦).

فال المصيبة تخف بعد الأيام الثلاثة عادة، وكذلك أيضاً ما يتعلّق بالهجر، لا يحل لِلإِنْسَان أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلات^(٥)، يعني: لحظة نفسه، ورخص في الثالث؛ لأن النفس تبقى محتملة في هذه الثالث، وهذا شيء مشاهد، فإذا حصل بين إنسان وآخر خصومة أو نحو ذلك فإن ذلك يبقى مضطراً في نفسه، فإذا مضى عليه اليوم الثالث لربما هدأت النفس، وذهب ما فيها، أو كثير مما فيها، وعنده لا يعذر بهجره، وهذا من لطف الشارع بالمكلفين، حيث لم يحملهم ما لا يطيقون.

فأخذ من هذا كثير من الفقهاء -رحمهم الله- أن العزاء يكون ثلاثة أيام، وهذا فيه نظر؛ وذلك أن العزاء إنما يقدم لمن أصيب، فإذا كانت المصيبة حارة فإنه يعزى ولو بعد الأيام الثلاثة، وإذا ذهب أثرها في النفس، أو خف فإنه لا يذكر بمصيته، ولا يقال له: أحسن الله عزاعك، وقد تسلى عنها ونسيها، فهذا أمر لا يليق، وهذا هو ضابط هذه المسألة.

بعض الناس يقول: مضت الأيام الثلاثة، انتهى وقت العزاء، نقول له: ينظر في حال هذا المعزى، إذا كان لا يزال في حزنه فإنه يعزى، وإن خفت مصيته فلا.

ومسائل الصبر وأعمال القلوب لا يكفي فيها العلم، بل لابد فيها من المجاهدة، والترويض، ومراقبة الخطرات، وملاحظة النفس في كل حالاتها، ما يكفي العلم، وقد رأينا من يحمل علماً كثيراً وهو من أشد الناس جزاً عند وقوع المصيبة، رجل ينسب إلى العلم -بل هو في عدد العلماء- يموت ابن له فتتغير حاله شهوراً، ويصير في حالة أشبه فيها بمن فقد صوابه، أو صار بمنزلة الصبي، وكلما دخل عليه داخل أخذ بيده، وجعل يمشي معه في حجرته ليريه كيف سقط ابنه ثم مات، وهكذا، ويكرر ذلك ويعيده، ويأتي أن يطفئ النور الذي في حجرة هذا الابن، ويترك ثيابه معلقة، بل لربما صدر منه بعض الهلاوس، لربما قال: لم يمت فلان؛ لشدة الصدمة، وهذا شيء مشاهد، لربما قالت المرأة عن زوجها: فلان سيرجع، فلان لم يمت، كما قال بعض الصحابة -رضي الله عنهم- لما صدموا بموت رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

والله -عز وجل- يقول: **﴿وَبَشِّرُ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، يتذكر الإنسان هذه الآية عند المصيبة ويقرؤها، كذلك إذا حصلت المصائب الكبار، والبلايا العظام للأمة، والامتحان والاختبار يتذكر قول الله -عز وجل- **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٢٢].

ويذكر أن الضعف، والبكاء، والعويل لا ينفعه بل يضره، ولربما عذب به هذا الميت، أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا وإياكم الصبر واليقين، والثبات والسداد في الأمر، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

^٥ - قال -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلات ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة (٥٧٢٧)، رقم: (٤٢٥٦/٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الهجر فوق ثلات بلا عذر شرعى (٤١٩٨٤)، رقم: (٢٥٦٠).